عناق العلم والفلسفة

على ذكر كتاب «الفلسفة في كل العصور»

لنقولا مراد

الله اعلم في اي دور من ادوار الحياة العقلية شرع الانسان يتفلسف . على ان الراجح انهُ منذ بدأ يلاحظ ظاهرات الطبيعة اخذ يحاول تفسيرها بمقابلة بعضها ببعض في مختلف المكان والزمان وموازنة تأثيراتها . ولذلك يحتمل ان تكون الفلسفة قد نشأت مع العلم ، اذا لم نجرؤ على القول انها نشأت قبله

ولا مشاحة ان الفلسفة نشأت منذ نبضت في العقل الانساني قوى الاستدلال والاستنتاج والتجريد Abstraction . ولا ريب انها بدأت تنضج قبل العلم لأن اساس العلم الاختبار عن طريق الحواس، ثم الامتحان والتجربة . والحواس وان استطاعت نقل التأثيرات الخارجية الى المراكز العقلية في الدماغ فلا تستطيع دائماً ان تنقل كنه حقائق المؤثرات : اي حقائق الاشياء المادية التي تصدر تلك التأثيرات . فقد يتراءى الشيء بواسطة تأثيراته خلاف حقيقته التي تظهر بعد التحقيق عن كنهه

لذلك يمكننا ان نزعم ان الفلسفة والعلم جريا في فسحات التاريخ مرشوبين او فرسي رهان، بل يمكننا ان نترك انهما مشيا ممتزجين امداً طويلاً قبل ان صار متسنياً الفصل بينهما . والغالب انهُ بعد ان تمايزا كانت الفلسفة اضخم من العلم لان آلتها المنطق وهو قائم في العقل نفسه . وآلة العلم الاختبار والامتحان وهما خارجان عن العقل فلم يتيسرا بحبوحة للفلاسفة والعلماء القدماء كما هما متيسران الآن

وقبل ان نتمادى في مماشاة العلم والفلسفة منذ عهد تمايزهما يجب ان نعرفهما او ان نذكر الفروق الرئيسية بينهما على الاقل

***

العلم يجمع المعلومات الناتجة عن المشاهدات والاختبارات والامتحانات العملية. والفلسفة تقابل تلك المعلومات بعضها ببعض لتكشف ما بينها من صلات وروابط عسى ان تكشف من ورائها ناموساً طبيعياً (او عقلياً) او مبدأ عاماً هو وسيلة الارتباط

العلم يبحث في الكون وفي المادة الخ وفي دقائقها وفي تأثيراتها — يبحث لا عن شيء

معين بل عن كل مجهول . فما يجده في اثناء بحثه يقول : هذا ما وجدناه. وأما الفلسفة فتضع نصب عينيها غرضاً معيناً تبحث عنه في الصلات والارتباطات التي بين تلك المعلومات التي وجدها العلم · فالعلم شبيه بشخص ينقب في الارض ليستخرج ما فيها وهو لا يدري ما فيها مما له قيمة كذهب او فحم او صدف الخ . فما يجده يعرضه على الخبير لكي يفرز كل صنف لعلته. والفلسفة شبيه بشخص يبتغي شيئاً معيناً — ذهباً او فضة او اي شيء بعينه . وقد استدل على وجوده في الاحافير التي احتفرها ذلك المنقب . فيجعل يغربل تلك الاحافير لكي يستخرج منها الذهب او الشيء الذي يبتغيه . فالعلم يقدم الغذاء للفلسفة

كثيراً ما يقرر العلم معلومات مخالفة للحقيقة وهو يجهل خطأه . ولا يندر ان تكتشف الفلسفة خطأه قبل ان يكتشفه هو بالاختبار والامتحان . مثال ذلك : كان العلماء الاقدمون يعتقدون ان الارض جسم مسطح ثابت فوقه سبع سموات مقبّبة تتحرك فوقه حركات متفاوتة ومستدلين على ذلك من تحرك السيارات التي لاحظوها. ولكن فيثاغورس وبطليموس لم يرتاحا لهذه النظرية . وبعاملها من النظر الفلسفي قالا بكروية الارض ووجودها في مركز تجويف الكرات السماوية. وبعد نحو بضعة عشر قرناً قال كوبرنيكوس بمركزية الشمس ودوران الارض كسائر السيارات حولها . لم يقل ذلك عن اختبار وتحقيق عملي بل عن تفلسف نظري. فجاء كبلر ومن بعده وأثبتوا بالاختبار العملي والرياضي صحة هذه الفلسفة

وكان الفلاسفة الاقدمون يتكهنون بأن المادة لا بد ان تكون مؤلفة من ذرات دقيقة جداً لاتقبل الانقسام. فلما نضج علم الكيمياء اكتشف الجوهر الفرد مؤيداً نظرية الفلسفة. ثم نضج علم الكهربائية فنقل نظرية الفلسفة من الجوهر الفرد الى نواته وكهربه . ويحتمل جداً ان تنقض الفلسفة تلك النظرية القائلة بعدم امكان انقسام الذرية القصوى وتقيم بدلها نظرية امكان الانقسام الى ما لا نهاية له ، على اعتبار ان كل جسم ، مهما كان صغيراً ، لا بدَّ ان يكون ذا طول وعرض وعمق والاَّ فهو عدم ، وما له هذه الابعاد يحتمل التجزئة الى اجزاء لها هذه الابعاد. وكان العلم في القرنين الاخيرين يقرر نظرية الاتصال اي ان اجزاء المادة ملامسة بعضها بعضاً بحجة ان الحركة لا تنتقل من ذرة الى ذرة الاَّ لانهما متلامستان . ولكن الفلسفة كانت احياناً تقول ان نظرية الاتصال تجعل تفسير بعض الظاهرات مستحيلاً كالضغط او الانضغاط والتحول والتقلص والمرونة الخ ولذلك قالت بالانفصال واخترعت الاثير وسيلة لانتقال الحركة من ذرة الى ذرة بعيدة عنها

***

وكما ان العلم يحتمل ان يخطيء في تقرير معلوماته كحقائق فالفلسفة ايضاً يحتمل ان تخطيء في تقرير نظرياتها . بل هي اكثر عرضة للخطإ من العلم لانها لا تستند الاَّ الى المنطق وهو

عنصور في قفص العقل . مثال ذلك كانت فلسفة سبنسر المبنية على ناموس التطور الداروني (التركيبي) وعلى ناموس الجاذبية النيوتوني تقول ان الاجرام السماوية تتجمع رويداً بفعل الجاذبية الى ان يهبط بعضها على بعض وتتصادم تصادماً عنيفاً جداً وتلتهب ثانية وتتمدد بقوة حرارتها المستجدة الى سدم وتستأنف حياتها ثانية . ولكن اكتشاف قوة الدافعية (الكونية Cosmic expansion من جراء مباحث هبل ودي ستر وأرصادهما اظهر نقيض فلسفة سبنسر اي ان الاجرام تتشتت في الفضاء ولا تتجمع ، وبحسب تقريرات العلم الحديث تذوب تذوباً

الفلسفة خلقت الاثير لتعليل انتقال الامواج النورية ولكن الاثير لم يثبت امام تحقيقات العلم الحديث بل خلع عن عرشه كاكم لم يبق له لزوم . وسيبقى مخلوعاً الى ان يصادف العلم عقبة لا يمكن تخطيها الا بواسطة الاثير فيعاد هذا الى عرشه

وبعد اكتشاف داروين تسلسل الاحياء وتنوعها نشأت فلسفة « تنازع البقاء » و« بقاء الانسب » فحاول كثير من المتفلسفين ان يطبقوا هذه النظرية على كل ضرب من ضروب الحياة حتى الحياة الاجتماعية ، فسرت في اواخر القرن التاسع عشر نظرية السوبرمان (الانسان الاعلى او الامثل) ونظرية ان الحرب سنة طبيعية . فكادت تدك هذه النظرية صروح النظم الاجتماعية الى الحضيض . ولكن ما لبث العلماء الاجتماعيون ان تداركوا هذا الخطر المبدد المجتمع الانساني بتفسير اوسع لناموس تنازع البقاء بمعنى ان هذا الناموس ليس حرباً عمياء او بالاحرى ليس تنازعاً للبقاء اعمى يمزق الجماعات ، بل هو غربلة للانواع والجماعات وفرز لمتبايناتها بعضها من بعض توطئة لتجمع المثل مع المثل وتأليف مجتمع من الجماعات اكبر

ومع ان داروين لم يدع الفلسفة فقد كان في كثير من مباحثه فيلسوفاً صائب الرأي وفي بعضها كان مخطئاً . فقد تفلسف في مسألة تعليل كيف ان المولود يقتبس من والديه مزاياهما او معظم خواصهما الجسدية فزعم ان جرثومتيهما (الذكر والانثى) تأخذ من كل عضو من اعضائهما ذريرات سماها Gemules وكل ذريرة منها تنشيء في كل عضو من الجنين مثل ملامح العضو الذي اخذت منه من الوالدين . ولكن علم البيولوجيا الحديث اثبت فساد هذه النظرية بما اكتشفه من بزرات الكروموسوم في الجرثومة الاولى ومن طبائعها المختلفة التي تحدد للجنين الاتجاه الذي تتجه اليه في تكوين الاعضاء مماثلة بالمزايا والصفات لصفات الوالدين

***

اذن ، كلا العلم والفلسفة عرضة للضلال . ولكن العلم القديم كان اضل سبيلاً من الفلسفة لنقره في وسائل الاختبار والامتحان والتدقيق في المشاهدة والمراقبة . فكانت الفلسفة تتقرب به الى الصواب ما استطاعت بقوة المنطق والاستدلال والاستنتاج

اما اليوم فقد اصبح العلم اقل ضلالاً جداً من قبل لانه استخدم من الآلات والعدد

ما يضاعف مدى حواسهِ ولاسيما بصره وسمعهُ وشعوره بالحرارة والمقاومة . واستطاع ان يدخل بواسطة تلك الآلات الى اعماق المادَّة وان يصل الى ابعد ما يمكن من اقاصيها . فاصبح يقود الفلسفة ورائهِ او يتأبطها لكي يستفتيها حيثما تلتبس عليهِ الحقائق او تختلط ويلتبس بعضها بعضاً

وحاصل ما تقدم ان العلم نشأ الى جنب الفلسفة او هي نشأت الى جنبهِ . ثم صار ضلعاً منها في بدء نضوج العقل البشري ثم انفصلا وعاشا عمراً طويلا نحو ٢٠ قرناً . ثم تضخم العلم جداً وانطوت الفلسفة تحت لوائهِ كمستشار له في الازمات . ولك ان تقول ان الفلسفة اصبحت كعدَّة من جملة عدد العلم وآلاتهِ . وقد تندغم في المستقبل بالعلم وقد تتلاشى فيهِ بمعنى ان كل عالم سيصبح فيلسوفاً في علمهِ بل يجب ان يكون فيلسوفاً لكي يستطيع الاستمرار في بحوثهِ . وان بقي محلٌّ للفيلسوف المستقل عن العلم فهو الفيلسوف الذي يمكنهُ ان يحيط علماً بكل دقائق العلوم والفنون لكي يستخرج منها مبادىء فلسفية عامة. وليس بعسير على عصر العبقريات ان ينجب فلاسفة كهذا يكونون اعظم من الفلاسفة المتقدمين

***

لكل علم وكل فن فلسفته الخاصة . ولكل فيلسوف بل لكل عالم نظريات خاصة في فلسفتهِ او علمهِ. فلاصل الوجود وللمادة فلسفة بل فلسفات وكذلك لكل من الحياة والعقل والآداب والاخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والفنون واللغة الخ . فلا يمكن ان تحصر الفلسفة في بحث عام شامل. بل يتعذَّر على عبقري واحد اليوم ان يتفلسف في كل شيءٍ من غير ان يضل السبيل في بعض الاشياء او يتغلب وهمه على الحقيقة ويموّه عليها في مقدماته ونتائجهِ . ولذلك تعدَّدت نظريات الفلاسفة كثيراً وتضاربت وتباينت وتصادمت في مواقف كثيرة حتى صار يتعذر على دارس الفلسفة ان يستوعب فلسفة كل فيلسوف ويوازن بين الفلسفات العديدة ويستخرج منها حكماً اقرب الى الصواب . فلذلك تقلص درس الفلسفة اليوم الى ان انحصر في درس تاريخها ، وهو درس تطوُّر الذهن البشري في التفلسف منذ القديم الى اليوم في خلال درس خلاصة الفلسفات المتنوعة والمتعاقبة

وهذا ما اقدم عليهِ صديقي الاستاذ حنا خباز في تلخيصهِ الآراء الفلسفية منذ القديم الى اليوم في كتابهِ « الفلسفة في كل العصور » في ثلاثة مجلدات ظهر منها اولها حديثاً مشتملاً على الفلاسفة منذ القديم حتى القرن التاسع عشر

ولا بدَّ ان يستغرب القارىء اقدام المؤلف بل جرأته على هذا العمل العظيم الذي تهابه نوابغ العلم والفلسفة في غير الشرق . ولكن لنوابغ الشرق اقداماً يدهش الغربيين كاقدام النابغة بطرس البستاني على انشاء « دائرة المعارف » ثم اقدام العلامة محمد فريد وجدي على انشاء دائرة اخرى بعده، واقدام افراد آخرين على اعمال اخرى لا يقوم بها في الغرب الأَجماعات.

ولكن لمؤلف «الفلسفة في كل العصور» جلداً ومثابرة في الدرس والتفكير يجرئانه على الاقدام على هذا العمل الخطير . ومع ذلك فهو حاذر ان يصوغ مواد كتابه صوغاً شخصياً تفادياً للضلال ، بل انتقى مواد كتابه انتقاء دقيقاً من مؤلفات أساطين العلماء الحديثين الذين كتبوا في الفلسفة وتاريخها

***

فاذا درست هذا الكتاب ارتسمت في ذهنك سلسلة طويلة متعددة الحلقات ومتنوعتها عن تدرج الفلسفة منذ نشوئها الى اليوم . ومنها تكوّن في يقينك كيفية تطوّر الذهن البشري في تعليل الوجود وظاهراته المختلفة وردّ الفروع الى اصولها . وربما خرج القارئ من مطالعة هذا الكتاب بالخلاصة التالية : يمكن ان تتبوّب الفلسفات هكذا : —

١ — فلسفة الوجود او الكون — كيف وجد وكيف يتصرف
٢ — فلسفة المادة الشاغلة الحيز الكوني
٣ — فلسفة الحياة
٤ — فلسفة العقل ، والمنطق والرياضيات
٥ — فلسفة الاجتماع } ويدخل تحتهما فلسفة الشرائع والحكومات
٦ — فلسفة الاخلاق والآداب } وفلسفة الاقتصاد
٧ — فلسفة الفنون

هذه الفلسفات تمشت معاً يصاحب بعضها بعضاً في سلم الرقي في العصور الاولى حتى عصر سقراط وافلاطون وارسطو حيث اندفعت الفلسفات الثلاث الاخيرة — الاجتماع والاخلاق والفنون — اندفاعاً عظيماً سابقة اخواتها شوطاً بعيداً ، وفلسفة العقل تجري وراءها بسرعة اقل من سرعتها . واما الفلسفات الاخرى الثلاث الاولى فبقيت تمشي الهوينا حتى القرن الرابع عشر اذ جعلت تسير سيراً حثيثاً . وكانت كلما تقدمت اسرعت حتى ادركت في القرن الاخير سابقاتها ثم تجاوزتها جامحة امامها ومحرزة قصب السبق بتفوّق عظيم

ومعنى هذا الترتيب في السباق ان فلسفة الاجتماع والاخلاق كانت متضخمة جدًّا في الدور الثاني الذي يضم سقراط وافلاطون وارسطو حتى كادت تبلغ المثل الاعلى . وبعد ذلك العصر لم تتقدم كثيراً ، على انها لا تزال الى الآن المورد العذب الذي يستقي منه علماء العصر وفلاسفته ، ولا تزال موضوع تجديدهم ايضاً

واما فلسفة الوجود والمادة والحياة فلا ينتظر ان تكون في اوائل عمرها البطيء الا متبلة بل سخيفة ملأى من الاوهام والخرافات والتخرصات التي صار العقل الحديث يستهجن جوازها في العقل القديم . ففي الدور الاول كان طاليس يحسب العنصر الاول الماء مستنداً

الى مشاهدة ما اهاه من خطورة الشأن عند الحيوان والنبات والاتصال بين التارات (المعروفة حينئذٍ) وكون الارض عائمة فيه . وهيرقليطس حسب النار العنصر الاول

واغرب ما في سخافات الفلسفة القديمة ان الفيثاغوريين حسبوا الاعداد اصل الأشياء لانها اصل العلوم الطبيعية ولان النغم الموسيقي مرتبط بالنسبة العددية وان بعض الاعداد تكرر في ظاهرات طبيعية جمة. وان شئت ان تستقصي السبب لحسبانهم الاعداد اصل الاشياء وجدته سخيفاً جدًّا . فقد حسبوها جوهر المحدودات. وفيلولاوس فسرها بان الاعداد في نظر الفيثاغوريين اشياء ذاتية لا رموز . ولا متسع هنا لشرح التفسير وانما لا غرابة في منحهم الاعداد هذه القيمة بجعلها اصل الاشياء لان الرياضيات كانت لعصرهم ارقى علومهم بل كانت في غاية الرقي حتى بالقياس الى عصرنا الحاضر. واذا لم يكن من ثمارها الا اكتشاف فيثاغوراس قضية المثلث القائم الزاوية (مربع وتره يساوي مجموع مربعي ضلعيه) فكفاهم به فخراً وكفى هذا الاكتشاف ان يعظم شأن الاعداد عندهم . لأن هذه القضية وسعت دائرة الحساب الرياضي والفلكي وصارت اساساً لعلم حساب المثلثات المبني عليها وهي الملجأ في اكثر القضايا الرياضية حتى قضايا نسبية انشطين

كذلك عبروا عن السيكولوجيا بالاعداد . فالعقل عندهم واحد والمعرفة اثنان والرأي ثلاثة والحس اربعة ومجموعها عشرة . وهي منتهى الاعداد الاولية الأصلية

ثم جاءت فلسفة زينون فحلت بالعناصر الاربعة الاصلية الماء والهواء والنار والتراب وبقيت هذه الفلسفة عدة قرون اساس الاصول

ومن الاوهام غير المعقولة في فلسفة هيرقليطس ان «النار هي اصل الجسد والنفس . فاذا فارقت النفس الجسد صار بارداً عقيماً . النفس هيئة محفوظة في اقدس صورة. وكلما زاد الجسد جفافاً زادت النفس حكمة. فاذا اطفأتها الشهوة تلف العقل. بالنار تتغذى وتدخلها النار بالتنفس»

ولا متسع لسرد الأمثلة عن نظريات اولئك الفلاسفة في اصل الوجود . فهي كثيرة ومختلفة ومعظمها تذهب هباء امام علم العصر الحديث وفلسفته . ولا غرو ان تكون كذلك لانه لم يكن لاولئك العباقرة سند غير التفكير العقلي بل كانوا فقراء جدًّا بالوسائل الاختبارية

مع ذلك نجد في نظرياتهم كثيراً من جراثيم الحقائق التي اثبتها العلم اليوم وهي شواهد ناطقة على سعة مداركهم وعمق تصوراتهم وعلى عبقريتهم التي لا تفوقها عبقرية

فمن ذلك قولهم بتأليف المادة من ذريرات متماثلة، ولاختلاف ترتيبها سبب اختلاف صور المادة . فاريسطو يقول : اذا قلنا ان الصورة تغيرت عنينا ان المادة تلبست بصورة اخرى. ومن ذلك قوله : ان التغير في الكون موضعي وفي علاقة الذرات . ويرى ان المادة ساكنة منفعلة . والفضاء هو الفسحة بين كل جسمين . وكل غير محدود بالجسم فليس بفضاء. وحيث لا أجسام

فلا فضاء (ولا يخفى على المطلع ما في هذا القول من المطابقة لنظريات العلم اليوم) . فالكون محدود وهو غير متحرك . لكن بعض اقسامه يتحرك . ويعني بالحركة نوعاً من التغير

ومع تقدم الفلسفة القديمة في التفلسف العقلي فقد كانت تشوبها اوهام كثيرة كقول ارسطو: «مركز الشعور العام القلب حيث تتجمع الشعورات الواردة من الحواس فيحصل ادراك الشيء ونعرف اوصافه كالعدد والحجم والشكل والحركة والسكون . وفيه قوة التذكر وائتلاف الفكر . وتنسب اللذة والالم الى الحواس . . . ولا يخفى ان سبب هذا الوهم جهل القدماء الجهاز العصبي برمته ولو انتبهوا اليه وخبروه لعدلوا في التعليل عن القلب الى الدماغ

ومن غريب اقوال الرواقيين خلفاء سقراط وخلفائه قولهم : «ان الاجسام فاعلة ومنفعلة فالمادة والقوة شيء واحد وكلاهما مادي (وهو ما يقوله علماء اليوم من وحدانية المادة والقوة) ثم يقولون ان القوة مادة لطيفة والمادة هيولى لا صورية (صورتها القوة) . فالكون باجمعه هيولي بما فيه النفس والله، حتى ان الصفات نفسها هيولية مؤلفة من ذرات نارية وهوائية — فانظر ما ينطوي عليه هذا السخف من جراثيم الحقائق التي رجحت في هذا العصر

على ان جميع الفلاسفة انتهوا في سلسلة التعليل او تسلسل العلل Causality الى وجوب وجود الله لانهم في منتهى البحث يبلغون الى علة لا علة لها — وهي حرة تختار احد وجهين بلا سبب، فلابد من افتراض ارادة لها. ولكن حقيقة الله تختلف بين فلسفة واخرى اختلافاً بيناً

ولا متسع لايراد الامثلة والشواهد على ما في فلسفات القدماء من جراثيم الحقائق الناصعة المخبوءة في قشور الاوهام والسخافات . على ان كتاب « الفلسفة في كل العصور » مستوفٍ في بسط مجمل كل فلسفة من الفلاسفة القدماء والحديثين وفيه تقع لذة الراغب في مطالعة تاريخ الفلسفة ومذاهب الفلاسفة

ومجمل ما اود ان اقوله هنا ان فلسفة الاقدمين قاصرة جداً في تفسير الظواهر المادية واستكناه كنه الوجود والمادة والحياة وارق قليلاً في استكناه قوى العقل ولكنها ناضجة جداً في تفسير ظاهرات الاجتماع والاخلاق والآداب والسياسة والفنون الجميلة

اما عن العصر الاخير فلك ان تقول ان ذلك التضخم الذي كان للفلسفات الاجتماعية وما اليها مما ذكرته آنفاً اصبح قزماً بازاء تضخم الفلسفات المادية والحيوية والعقلية ايضاً في هذا العصر. على ان فلسفة الاخلاق والآداب لم تترقَّ كثيراً في العصر الاخير كأن شوطها انتهى في عصر بطاركة الفلسفة الثلاثة — سقراط وافلاطون وارسطو . ولا بدع في ذلك لان العالم البشري اصبح في حاجة الى العمليات اكثر منه الى النظريات. وفي نظريات الفلسفات الاجتماعية والادبية والاخلاقية ما يكفيه الآن لتطبيق العمل عليه . فاذا كان العالم يسير بموجب تلك النظريات تتضاعف سعادته اضعافاً

شبرا — مصر